ملخص البحث

مقدمة: إن البحث في التراث الفني السوري والدخول في عوالمه الرمزية التي تتوازن فيها المادة العلمية المعرفية مع القيم الروحية والوجدانية، هو دخول في عمق الثقافة البصرية المعاصرة، باعتبار هذه الثقافة هي النتيجة أو المحصلة للتحولات اللامحدودة التي مر بها هذا التراث، وهذه الدراسة يمكن أن تكون مقدمة لمشروع البحث في الشكل التراثي وتحويراته الجمالية وتطور اللغة البصرية في التشكيل السوري ابتداء من مراحله الأولى من خلال تحليل مفرداته التشكيلية والتعمق بمضامينه الفنية والفلسفية ضمن سياق ظروفه التاريخية التي كانت المناخ الذي تكون فيه.

إن ما تميز به فن التصوير السوري من حرية الإبداع والصياغات الفنية المتجددة في الأسلوب والأداء والتحوير، كان دائما البداية المثالية لمرحلة تطور في الفنون التشكيلية المعاصرة، مع الاستفادة من المعطيات العصرية في كافة المجالات التقنية والفكرية، والخطوة الأولى في الاستلهام التراثي تبدأ من فهم التراث الفني بصفته محصلة المفاهيم والقيم والصيغ البصرية والمفردات التشكيلية التي كانت نتيجة التحولات التطورية التاريخية على صعيد اللغة البصرية والمفاهيم الفكرية والوجدانية.

مشكلة البحث:

إن استلهام التراث الفني المحلي وتوظيف المعطيات التراثية موضوع جدل يطرح التراث الفني كمنطلق لأي تحول فني يسعى باتجاه تحقيق نفسه من جهة، وكذلك يطرح هذا التراث بصفته ثقافة ترتكز إلى الثوابت النفسية الموروثة وإلى ثوابت القيم، وهنا تكون عنصر ترسيخ لما يجب تغييره، وعامل كبح للتفكير الإبداعي باتجاه الماضي، وهذه السلبية في التعامل مع

التراث تستند إلى محتواه المعرفي، وربط التفكير بهذا المحتوى الذي يسعى الإبداع لتجاوزه، وتكمن إشكالية هذا البحث في محاولة الانتقال بفهم التراث الفني من مرحلة الفهم الجامد لمعطياته الفنية، إلى النظرة المتحركة لهذا التراث باعتباره الواقع الفني الحقيقي الذي تتحقق فيه التحولات الإبداعية في التصوير المعاصر.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث من الكشف عن العلاقة القائمة بين التراث الفني المحلي ولوحة التصوير السوري المعاصر، ومدى قدرة التراث على التكيف والتآلف مع التحول الإبداعي.

وأيضا من الدراسة التحليلية للوحة السورية المعاصرة كحالة فنية إبداعية لها جذورها العميقة في التراث الفني، ومحاولة للتعمق في طبيعة العلاقة بين التراث الفني والإبداع في اللوحة للكشف عن الأفكار والسمات الجديدة في التحول الإبداعي.

الحدود المكانية والزمانية:

إن التحديد الزماني في هذا البحث يخالف النظرية المطروحة في متن البحث للرؤية التراثية، لأن هذه النظرية تقوم على الحركة وعدم الثبات، وعلى التحولات والتبدلات التي تحدث في حركة مستمرة لا تتوقف، وبذلك يكون تحديد بداية أو نهاية لمرحلة ما مناقضا لمحتوى البحث، لذلك تم تحديد الحدود الزمانية في هذا البحث بشكل اصطلاحي ضمن بداية القرن العشرين ونهاية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، أما الحدود المكانية فهي الجمهورية العربية السورية بحدودها الجغرافية الحالية.

منهج البحث:

إن التعرف على التراث الفني يتطلب العمل على المنهج التحليلي من خلال تحليل المحتوى المعرفي إلى مفاهيمه الأولية، وكذلك تحليل آلية التحول الإبداعي وعلاقتها بالمحتوى المعرفي، وكذلك تطلب هذا البحث المنهج المقارن لربط النتائج مع التصوير السوري المعاصر فجاء هذا البحث حسب المنهج (التحليلي، التحليلي المقارن).

أهداف البحث:

- إظهار الإمكانيات الفنية على مستوى التجديد والإبداع في التراث الفني السوري في فن التصوير، سواء في الطروحات اللونية أو في الأشكال والتحويرات التي توحي بأبعاد إنسانية على الصعيد الذاتي والموضوعي من خلال الصياغة والتأليف الذي اعتمد الحيوية والعمق والقوة والاختزال والمبالغة، وتوضيح ضرورة استخدام هذه الإمكانيات في الفن التشكيلي من خلال التأكيد على قضية الاستلهام التراثي وتوظيفها في فن التصوير المعاصر.

- إظهار ضرورة التراث المحلي كعامل أساسي في تطور التشكيل السوري وحماية الخصوصية الفنية للّوحة السورية وخاصة في ظروف العولمة الحالية، وتحريض الفنان على أن يبصر جذوره العميقة في تراثه، وأن يكون شعوره الراسخ بالانتماء لهذا التراث حماية له من متاهات العبث والضياع.

- الوصول لمعرفة علمية لمبادئ وسمات التحولات الإبداعية في التصوير السوري المعاصر من خلال ربطها بالتحولات الإبداعية الكامنة في التراث المحلي ورؤيتها في سياقها التاريخي.

تحدد المصطلحات والمفاهيم:

إن أهم المصطلحات والمفاهيم التي تبرز في هذا البحث تظهر في العنوان الرئيسي وقد جاءت كما يلي: (التراث) و(التحول) و(الإبداع) و(التصوير) و(المعاصرة).

متن البحث:

جاء البحث في خمسة فصول، وتناول كل منها جزءا من المحتوى العلمي الذي قدمته هذه الأطروحة، وقد جاءت كما يلي:

الفصل الأول: الأسس التعريفية للبحث:

يتناول هذا الفصل مناقشة مصطلحات البحث وتحديد أسسها التعريفية بعد تقديم إشكالية البحث ومبرراته وأهميته وحدوده الزمانية والمكانية, وشرح المنهج المتبع وتوضيح أهداف هذا البحث. يقدم هذا الفصل دراسة لمفاهيم هذا البحث ومصطلحاته من خلال عرض تعريفاتها اللغوية والاصطلاحية والفلسفية والفنية والإجرائية. حيث يبدأ بتعريف المصطلح لغة واصطلاحا ثم يشرح تعريفاته الفلسفية من خلال آراء أهم الباحثين في المجال الفلسفي والفني, ثم يقدم الباحث التعريف الإجرائي الذي يتوافق مع معطيات بحثه. وقد تمت مناقشة مصطلح التراث من خلال الطروحات الفلسفية المعاصرة التي تقدم التراث على أنه موجود في البنية التكوينية للحاضر بهدف الوصول إلى تعريف للتراث الفني يبرز فعاليته في الحركة التشكيلية المعاصرة. كذلك ناقش هذا الفصل مفهوم التحول, والمعاني الفلسفية التي يطرحها المنظرون بين التحول الشكلي والتحول الداخلي من خلال القواعد والكيفية في البنية العميقة للتحول. كذلك تم طرح مفهوم الإبداع من خلال نتائج النظريات المعاصرة التي أوجدت تعريفات للإبداع تتوافق مع محتواه المتغير من خلال إرجاع الإبداع إلى العمليات الذهنية التي يتم من خلالها تحقق العملية

الإبداعية, وكما تم مناقشة مفهوم المعاصرة من خلال المعايير المطروحة من قبل الباحثين في هذا المجال لبلورة هذا المفهوم وإعطاءه معان أبعد من إشاراته اللغوية وأقدر على جعل هذا المفهوم غير مقيد بانتمائه الزماني بل بمدى فاعليته في الواقع الراهن.

الفصل الثاني: المشهد التاريخي للتراث الفني

تناول هذا الفصل الامتداد التاريخي للتراث الفني السوري في مجال التصوير من خلال عرض لأهم الأساليب الفنية التي رافقت مراحله التطورية، في محاولة للتعرف على أصوله الأولى. وكذلك قدم الباحث في هذا الفصل رؤية في قدرة التراث على التكيف مع الأساليب الفنية المعاصرة من خلال طرح التراث كنظام متغير للعلاقات والنسب والقيم، وهذا النظام هو نسق تنتظم فيه الأعمال الفنية لتتآلف وتتفاعل، وتكوّن بكليتها التراث الفني، والتراث متغير بحسب التبدلات التي تطرأ على ذلك النظام، وهو مثالي دائما، لأنه محصلة التغيرات اللانهائية التي ورد ذكرها. والتي تحدث في كل لحظة، وهكذا يتغير الماضي بإضافة الحاضر إليه، وهذا التغير يحدث في كل لحظة، وبنفس الطريقة يتبدل التراث بإضافة الجديد من الأعمال الفنية والقراءات الإبداعية للأعمال الفنية، وبكلمات أخرى بإضافة الذات إليه، وهكذا يكون التراث متغيرا حسب الشخص الذي يقرأ ذلك التراث.

الفصل الثالث: التوظيف الفني للتراث المحلي في التصوير السوري المعاصر

تناول هذا الفصل وجود التراث في العمل الفني من خلال دخوله في البنية التكوينية العميقة للفنان، فالعمل الفني لحظة اكتماله وانتمائه لعالم الفن يكون قد صار ماضيا بالنسبة للفنان، لكن هذا الماضي بنفس الوقت صار جزءا من البنية الوجدانية والمعرفية، وبكلمات أخرى صار هذا الماضي هو الإنسان نفسه، فكيف يعيش ويبدع متجاهلا بنيته وتكوينه. كذلك ناقش هذا الفصل الإدراك الجمالي للتراث الفني وعلاقته بالمفاهيم الذاتية والموضوعية عند الفنان من خلال تحليل العلاقة بين تحويل الذات إلى موضوع جمالي من خلال العمل الفني، وتحويل الموضوع

الجمالي إلى ذات من خلال التذوق الجمالي، وتوضيح الدور العميق للتراث الفني في الإدراك الجمالي من خلال الرابطة الخفية التي تتمثل بالحس المشترك الكامن في الشعور واللاشعور الجمعي. كذلك ناقش هذا الفصل استلهام إمكانيات التراث الفني المحلي في محاولة لفهم كيفية نشوء الصيغ الفنية وتوظيفها في الإبداع التشكيلي المعاصر.

الفصل الرابع: التراث الفني كمنطلق للتجربة الإبداعية في فن التصوير

تناول هذا الفصل ماهية التصوير من خلال رؤية فلسفية تحليلية تستند إلى المفاهيم الفلسفية التي يطرحها فن التصوير وعلاقتها مع العمليات الذهنية التي تترافق مع التجربة الخيالية والإبداعية في العمل التصويري. وتطرق البحث إلى فاعلية فن التصوير من خلال التحكم بالنظام الصوري الذهني للمتلقي الذي تتم من خلاله عمليات التخيل والتفكير الإبداعي, وقدرته على تفعيل القراءة البصرية عبر العقل الباطن. كذلك ناقش علاقة الإبداع بالبيئة المادية والروحية من حيث أن الإبداع هو محصلة مجموعة التحولات التي تحدث على الصعيد الشخصي للمبدع وهذه التحولات مرتبطة بالتحولات التي تحدث في محيطه على جميع الأصعدة ومهما بدا الإبداع شخصيا أو ذاتيا أو غريبا عن أسبابه الاجتماعية ,فلا يمكن فهمه بمعزل عن تلك الظروف والتحولات. كما تم تناول العلاقة بين الإبداع والتراث في فن التصوير من خلال تحييد المعلومات المكتسبة وتقديم المعرفة الحقيقية التي تعني إدراك نظام الأشياء وعلاقاتها, هذه المعرفة التي تقدم الكيفيات المطروحة للتحولات الإبداعية ليختار منها ما يناسب احتياجات المرحلة التي يعاصرها.

الفصل الخامس: التراث والتحولات الإبداعية

تناول هذا الفصل علاقة التراث بالتحول الإبداعي من خلال البعد الذاتي والبعد الشخصي والبعد التاريخي من حيث أن التحول الإبداعي هو نتيجة التحول الفكري والعاطفي الذي يوجه الفنان باتجاه الحقيقة الكاملة والجوهر العميق للتجربة الإنسانية، متجاوزا بذلك المظاهر المؤقتة،

والتجارب الفنية العديدة التي مر بها وعرفها حتى اكتسب المعرفة التي وصلت به إلى هذا التحول، ويصير هدفه الإبداعي هو التعبير من خلال فنه عن النظام الكوني الذي تتغير المظاهر المادية وفقه، وليس التعبير عن تلك المظاهر المادية أو شعوره تجاهها، ويحاول الوصول إلى صيغ تشكيلية جديدة تتناسب مع التحولات التي تحدث في ذلك النظام، وهكذا يكون تجاوز الفنان للواقع تجاوزا إبداعيا باتجاه كشف الحقيقة التي يمثلها هذا الواقع. وقد تطرق البحث إلى ربط هذه النتائج بالتصوير السوري المعاصر من خلال دراسة تحليلية للتأليف الإيقاعي التراثي في اللوحة السورية المعاصرة، ووجود التراث في تكوينها الفني بصفته مادة البناء الأولى في تكوين العمل الفني ليس على المستوى المعرفي فحسب بل أيضا على المستوى الروحي بالنسبة للفنان والمتلقي, وكذلك تمت دراسة المنظور الروحي في التراث المحلي وانعكاساته في التصوير السوري المعاصر من خلال التحليل الشكلي للعلاقة بين عناصر العمل الفني الشكلية وموضوعه ومادته وظروفه التاريخية.

نتائج البحث:

تلخص نتائج البحث إجابات للأسئلة التي تطرحها إشكاليه البحث من خلال قراءة التراث الفني قراءة جديدة تتيح رؤية حيويته وتفاعله مع معطيات الحاضر وذاتية الفنان، وإدراك وجوده وتأثيره العميق في اللوحة المعاصرة.

1- التراث مفهوم لمحتوى ديناميكي, وهو متغير بتغير الزمان, وثباته محال حتى على مستوى وجوده المادي, ووجوده أشبه بالدفق المستمر الذي يجعله في حركة دائمة هي أشبه ما تكون بحركة النمو, فالنظام القائم يبدو كاملا قبل إضافة العمل الجديد, ويتغير بعد الإضافة ليكون محصلة تغيرات لانهائية, وبالتالي فهو في حركة دائمة حسب تغيرات العصر.

2- إن التراث الفني المحلي السوري هو انعكاس لرؤية فلسفية ذات أبعاد حضارية عميقة, وهذه الرؤية تعكس فلسفة في الفن يمكن أن توحي بكيفيات عديدة لتوظيف التراث المحلي,

ويمكن أن يتولد عنها اتجاهات في تنظير الفن تكون قاعدة لتقييم التجربة الفنية وتحليلها, وبنفس الوقت تكون أساسا لتحليل التراث الفني وتوضيح مفاهيمه في ضوء ثقافة العصر الراهن.

3- إن توظيف التراث يبدأ من فهم معطياته المتحركة وليس من خلال محتواه المعرفي الجامد, وهذه النظرية تقوم على التركيز على الآلية التي تنتج الرؤية التي يقوم عليها العمل الفني, وليس على المعلومات التي يحتويها.

4- الفنان عندما يبحث في شكل فني معين وهو مدرك لتاريخه التطوري, فإن التحولات الشكلية التي حدثت فيه توحي للفنان بالتحولات الفنية الممكنة الحدوث, لأن تركيزه في هذه الحالة سيكون على الماهية وليس على الشكل, وسيبدو الشكل أمام عينيه متحركا قابلا لذاتية الفنان وانفعالاته.

5- إن فن التصوير في التراث الفني السوري هو صلة وصل بين النفس وأصلها, والصور هي لغة وتجسيد لهذا التواصل, وكانت هذه الفلسفة الفنية مقدمة لواحد من أهم التحولات التي حدثت في فن التصوير المعاصر وهي إدراك الإنسان أن ما يراه ليس الشيء بحد ذاته, وإنما انعكاس ذاته على الشيء. والمظاهر المادية التي يراها هي نتيجة تفاعله مع الطاقة الحيوية التي هو جزء منها.

6- عندما يبرز التراث كقوة مقاومة للتحول الإبداعي في الفن, فإنه سيكون تقويما لهذا التحول من خلال تحول مضاد, لأن قوة الانزياح في التحول الإبداعي يجب أن تحافظ على مسافة تسمح بالتواصل بين الفنان وجمهوره, حتى لا يكون ثمة قطع في الخط التاريخي للتطور الحضاري, فالتحول الإبداعي على المستوى الشخصي تكون صيرورته ضمن التحولات الاجتماعية التي تحدث في عصره, والتي تحقق صيرورتها ضمن تحولات الوجود الإنساني.